الدعوة التامة

حُقوق الطّبع محفوظة

الطّبعَةُ الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

النّاشِر: المؤلّف

طُبعَ في مَطبَعَة الشّام

عَدَدُ النّسخ: ١٠٠٠

رَقمُ الموافقة: ٤٦٧٩٥

تاريخ: ٢/٢/٢٠٠٠م

توزيعُ مكتبة الغزالي

دمشق - قوامة - شارع خالد بن الوليد - ص.ب ٤٤٨

هاتف ٢٢٣٥٠٥٢

مكتبة مجمع اللغة العربية
التاريخ: ٢٧/٧/٢٠١٠
الرقم: ٥٣٧٣

مكتبة مجمع اللغة العربية
التاريخ: ١٨/٢/٢٠١٥
الرقم: ١٦٤٢٧

الدعوة التامة

بقلم

الدكتور مازن المبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللَّهُم : أنتَ الحق ،

وقولك الحق ،

فأَنِر قلبي بالحق ،

وحَلِّ لساني بالصدق ،

واجعلني أوثر الحق ، ولو كان فيه الغُرْم .

وجَنِّبْني الباطل ، ولو ساق إليَّ الغُنْم .

اللَّهُمَّ : نقِّني من الإثم ، مَا عَلَنَ منه وما استتر .

ومن الشِّرك ، ما بَطَنَ منه وما ظهر .

اللَّهُمَّ : أحيني مسلماً

وأمتني مسلماً

وألحقني بالصَّالحين

والحمدُ لله ربِّ العالَمين

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمةً للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فقد تفضَّل اللهُ تعالى على أستاذنا الدكتور مازن المبارك حفظه الله تعالى فألهمه أن يتوجه إلى كلمات النور والهدى التي اشتملت عليها عبادة الأذان ، وحوَّلها الناس إلى عادة ، لا تلمس قلباً ولا تحرك وجداناً ، فلم نعد نرى الآثار المعجزةَ التي كانت تتحقق في نفوس السلف من سماع تلك الكلمات ، فكانوا بذلك الأدوات النيرة التي تحقَّق بها قدر الله عز وجل في نشر أنوار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها .

لم يكن هذا الكتاب الزاد اللغوي والذخيرة الأدبية فحسب ، بل ثروة روحية فياضة حملتها من قلب المؤلف الثري بالصدق والحماس كلماتُ هذا الكتاب لتغزوَ قلوب القارئين وتسلك بها مسلك أفئدة السلف في التيقظ والفهم .

أسأل اللهَ عز وجلَّ أن ينفع به كل قارئ له ومطلع عليه ، ويجعله في صحائف أعمال المؤلف وموازين حسناته ، إنه سميع مجيب . . وآخر دعوانا أنِ الحمد للهِ رب العالمين .

أسامة الرفاعي

مناجاة(١)

سيِّدي رسولَ الله ، صلَّى الله عليك ،

أحمدُ الله بجميع محَامده ، ما علمتُ منها ومالم أعلم .

أحمدُ اللهَ حمداً يرضيه ، ويُنيلني رضاه ، ويُزلفني إليه .

وأُصلِّي وأُسلِّم عليك ، وأسأل الله أن يُثيبَك عنَّا خيرَ ما يُثيبُ نَبياً عن أُمَّته .

* * *

سيِّدي رسولَ الله ، صلَّى اللهُ عليك ،

يُسجِّل هذا اليومُ انقضاءَ خمسَ عشرةَ وأربعمئة وألف سنة على هجرتك إلى المدينة ، وإِنَّ ما بين المسلمين يومَ الهجرة والمسلمين اليومَ لأبعدُ من هذا الزمن بكثير!

لقد هاجرتُم نجاةً بدينكُم ، وإيثاراً له على دنياكُم .

جاهدتم في سبيل اللهِ فآواكُم ، ونصركُم ، وأثابَكُم فتحاً مُبيناً .

وانتقلتَ إلى الرَّفيق الأعلى وقد صَدعْتَ بما أُمِرْتَ ؛

بلَّغْتَ الرِّسالة ، وأدَّيتَ الأمانةَ ، ونَصَحْتَ للأمَّة ،

---

(١) استُلَّت هذه المناجاة من تقديم المؤلف لكتاب « خطبة الوداع » للدكتور هاشم منّاع ، كتبها سنة : ١٤١٦هـ .

وتركتَ فينا ما إنْ تمسَّكنا به فَلَن نَضِلَّ بعدَه أبداً :

كتابَ الله ، وسُنَّتَكَ .

وأذعتَ على المسلمين يومَ حجِّكَ بيانَكَ الجامع ، وخُطبتَك البليغة ، ووصيَّتك إلى أمَّتك .

* * *

سيِّدي رسولَ الله ، صلَّى اللهُ عليك ،

لقد كان كونُ خطبتك خطبةَ وداع ووصيَّةَ مُودِّع ـ طِبْتَ مودِّعاً وموَدَّعاً ـ جديراً أن يجعلَ دموعَ المؤمنين مدادَ عهدٍ على الوفاء ، وأن يجعل حرارةَ حزن مَنْ رآك على فَقدك ، وحزن من لم يرك على أن لم يرَك ، دليلَ صدق على الإيمان بك ، والتصديق برسالتك ، وشاهدَ حق على التزام وصيَّتك ، والاقتداء بسيرتك ، حتى يلقَوْك يومَ يَلْقَوْنَكَ بقلوب مؤمنة سليمة ، وجوارح نقيَّة نظيفة ، يسعى نُورهم بين أيديهم وبأَيْمانهم .

* * *

سيِّدي رسولَ الله ، صلَّى اللهُ عليك ،

استغفر للمسلمين من بعدك ،

ادعُ اللهَ أن يَهْديَهم ،

أن يُبرمَ لهم خُطَّةَ رُشدٍ يُعَزُّ بها دينُه .

لقد اجتالتهم حبائلُ الشيطان .

أغرتهم الدُّنيا بشهواتها التي حذَّرتَهم منها .

استعبدهم حبُّ المال والمنصب والجاه والسلطان .

* * *

سيِّدي رسولَ الله ، صلَّى اللهُ عليك ،
كيف يكون لهم عندَكَ قَدْر ، وقد استعبَدَهُم ماليسَ له عندَكَ قَدْر!
دعَوتَهُمْ إلى الوَحْدة .
تَفَرَّقوا ، وأصبحت الأمةُ أُمماً ، والوطنُ أوطاناً .
دعوتَهم إلى أن يكونوا يداً على مَنْ سِواهُم .
صار كلٌّ منهم يداً على أخيه .
حارب بعضُهُمْ بعضاً ، وأصبحَ بأسُهُمْ بينهم شديداً .
حذَّرْتَهُم من الركون إلى الظالمين .
رَكَنوا إلى الظالمين ، رَكَنوا إلى الكافرين .
هاجرتَ نجاةً بدينكَ .
هجروا دينَهُمْ فراراً بدنياهم ، وإيثاراً لها!
قلتَ لهم : « إنَّ العِلْمَ عِلْمَان :
علمٌ في القلب ، فذاك العلمُ النافع .
وعِلمٌ على اللسان ، فذاك حجَّةُ اللهِ على ابنِ آدم »[1] .
وعلمُهُم اليومَ كلامٌ لايتجاوز ألسنتَهُم .

رَويتَ لهم صلَّى اللهُ عليكَ : أنك مررتَ ليلةَ أُسْرِيَ بكَ بأقوامٍ تُقْرَضُ شِفاهُهُمْ بمقاريضَ من نارٍ ، فقلتَ : « مَنْ هؤلاء ياجبريلُ ؟ قال : خطباءُ أُمَّتِكَ الذين يقولون مالا يفعلون »[2] .

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في « تاريخه » ٣٤٦/٤ من حديث جابر بن عبد الله . وانظر « الترغيب والترهيب » (١٣٩) .

(٢) أخرجه أحمد ١٢٠/٣ ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٥١٣) من حديث أنس بن مالك .

خطباءُ الأمة اليومَ يتنافسون على المنابر وعلى وسائلِ الإعلامِ ، ناسينَ أنه : « ما مِنْ عبدٍ يخطبُ خُطبَةً إلاّ اللهُ سائلُهُ عنها يومَ القيامةِ : ما أراد بها ؟ »(١) .

* * *

سيِّدي رسولَ الله ، صلَّى اللهُ عليك ،

أرى تنافسَهُم اليومَ على كلامٍ استُؤجِروا له ، وأذكر ورَعَ مالك بن دينار الذي كان إذا حَدَّثَ بهذا الحديث بكى حتى ينقطع ، ثم يقول : تحسبون أنَّ عيني تَقَرُّ بكلامي عليكم وأنا أعلم أن اللهَ عزَّ وجلَّ سائلي عنه يومَ القيامةِ ما أردتُ به ؟ »(١) .

وأسمع كلام الخطباءِ وأذكر قولَ اللهِ عزَّ وجَلَّ : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ٥٠/١٨] .

* * *

سيِّدي رسولَ الله ، صلَّى اللهُ عليك ،

هذه حالُ الأمة اليومَ إلا مَنْ عَصَمَ ربُّكَ وقليلٌ ما هم .

وسيبقى هذا القليلُ دليلَ بقاءِ الخيرِ في هذه الأُمة .

وسيبقى هذا القليلُ شعاعَ أملٍ يضيءُ حتى يأتيَ أمرُ الله ، واللهُ مُتمُّ نورِهِ وبالغُ أمرِهِ ولو كَرِهَ الكافرون .

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٥١٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٧٨٧) من حديث الحسن البصري مرسلاً . وانظر « الترغيب والترهيب » (٢١٥) .

سيِّدي رسولَ الله ، صلَّى اللهُ عليك ،

هذه خُطبة حجَّتك ، ومن آخر وصاياك في دنياك ، نذكِّرُ الناسَ بها في أوَّلِ العام الهِجْريِّ الجديد ، وقد آمنَّا أن خيرَ الهَدْيِ هَدْيُكَ ـ صلَّى اللهُ عليك ـ وحاجةُ المسلمين إلى هَدْيِكَ وتوجيهاتِكَ لم تكن يوماً بأشدَّ منها اليوم .

* * *

سيِّدي رسولَ الله ، صلَّى الله عليك ،

أيشفع لي ما في قلبي من إيمانٍ ثابتٍ بنبوَّتِكَ وشريعتك ،

وحبٍّ غامرٍ لكَ ولسيرتكَ ، أَنْ أقولَ كلمةً بينَ يَدَيْ خُطبَتِك ؟

ومَنْ ذا الذي يجرؤُ أن يتطاولَ ـ لولا تواضُعُكَ ـ أن يقفَ في محراب بيانِكَ يا سيِّدَ البيان .

* * *

سيِّدي رسولَ الله ، صلَّى اللهُ عليك ،

حاشا أن أَدَّعِيَ أنني أقدِّمُ اليومَ خُطبَتَك ، ياسيِّدَ الخطباء

حاشا أن أزعمَ أنني أقولُ فيها تعريفاً ، يا إمامَ الأنبياء

وإذا قدَّمْتُ أو عرَّفْتُ فأنا الذي بهذا التَّقديم أُعْرَف ،

وأنا الذي بالحَديثِ عن خُطبَتِكَ أَشرُف .

وهل تُراني قادراً ،

وإنْ سَخَّرْتُ كُلَّ ما منحني رَبِّي من قدرات ،

وكلَّ ما فَطَرني عليه منْ صِفات ،

وكلَّ ما أوتيتُ من علومِ اللسان وفَهْمِ البيان . .

هل تُراني قادراً على النفاذ إلى حقيقةِ بيانِكَ ، صلَّى اللهُ عليك ،

أنتَ الذي ربَّاك ربُّكَ ، وعَلَّمَكَ البيان ، وآتاكَ فواتِحَ الكَلِم ، وخواتِمَ الكَلِم ، وجوامِعَ الكَلِم ، وجعلَكَ لسانَ وَحْيِهِ وتَرْجُمانَ كتابه .

أنتَ الذي على قَلبِكَ نزلَ وحيُ الله ، وبلسانك تلَوْتَه وبلَّغْتَه وفسَّرْتَه وشرحْتَه ،

وكنت في كلِّ ما نطقتَ أفصحَ العربِ لساناً ، وأبيَنَهُم وأجملَهُم بَياناً .

* * *

سيِّدي رسولَ الله ، صلَّى اللهُ عليك ،

ما أعظمَكَ مِنَّةً مَنَّ اللهُ بها علينا ، ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٦٤] .

اللَّهُمَّ إنَّ مِنَّتَكَ علينا برسولِكَ قد فاقَتْ شُكْرَنا ،

فأَعظِمْ له الأجْرَ ، كما رفعتَ له الذِّكْرَ ،

ولكَ ـ اللَّهُمَّ ـ الحمدُ حمداً لا ينقضي

وعلى نبيِّكَ الصلاةُ أفضلَ ما صُلِّيَ على نبيّ .

* * *

الدعوة التَّامة

جاء في « باب الدعاء عند النِّداء » من « كتاب الأذان » في صحيح البخاري ، الحديث (٦١٤) : عن جابرِ بن عبد الله أن رسولَ الله ﷺ قالَ :

« مَنْ قالَ حينَ يسمعُ النِّداءَ : اللَّهُمَّ رَبَّ هذه الدَّعوةِ التَّامةِ ، والصَّلاةِ القائمةِ ، آتِ مُحَمَّداً الوسيلةَ والفَضِيلةَ ، وابعثه مقاماً محموداً الذي[1] وَعَدْتَه ، حَلَّتْ له شفاعتي يومَ القيامةِ » .

وقال العلماء في شرح هذا الحديث النبوي الشريف : « إن المراد بالدعوة التامة دعوة التوحيد ، كقوله تعالى : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد : ١٣/١٤] » . « وقيل

---

(١) وقف بعض العلماء عند هذا التعبير لمخالفته لما عرفوه من أن النكرة لا توصف بمعرفة . قال ابن حجر : « الموصول [الذي] : إما بدل أو عطف بيان ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وليس صفة للنكرة » . فتح الباري ٢/١١٣ .

وقال العيني : « الذي وعدتَهُ : بدلٌ من قوله (مقاماً) ، أو مرفوع بتقدير (هو) ، أو منصوب على المدح . فإن قلت : هل يجوز أن يكون [الذي] صفةً للمقام ؟ قلتُ : إن قلنا (المقام المحمود) صار علَماً لذلك المقام ؛ يجوز أن يكون صفةً ، وإلا لا يجوز [كذا ، وكان ينبغي أن يقول : وإلا فلا يجوز] لأنه نكرة ». عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٥/١٢٣ .

على أنه سواء قبلنا هذا الوجهَ من الإعراب أو ذاك ، فإن الثابت أنه تعبير فصيح ، وإنَّ اختلاف النحويين في تخريجه لا يضَعِّفه ولا يجرحه .

وأرى أن النبي ﷺ ـ كما في كتب الحديث ـ قال : « مقاماً محموداً » حكايةً عن ربِّه سبحانه وتعالى الذي خاطبه بقوله : ﴿ومِنَ اللَّيلِ فتهَجَّد بهِ نافِلَةً لكَ عَسَى أن يَبْعَثَكَ ربُّكَ مقَاماً محموداً﴾ [الإسراء : ١٧/٧٩] ثم أتبع ﷺ الحكاية بقوله : « الذي وعدته » لأن المقامَ المحمودَ أصبح مقاماً معهوداً لتقدُّم ذكره في القرآن .

لدعوة التوحيد : تامة ؛ لأن الشركة نقص » ، « أو هي تامة لأنه لا يدخلها تغيير ولا تبديل ، بل هي باقيةٌ إلى يوم النشور » ، « أو لأنها المستحِقَّة لصفة التمام وما عداها مُعَرَّض للفساد » ، « وقالوا : إنها تامة ؛ لأن فيها أتمَّ قول وهو : لا إِلهَ إلا اللهُ »[١] .

« وقالوا : إن الأذان كلمةٌ جامعةٌ لعقيدةِ الإيمانِ »[٢] .

وأجملوا الحكمةَ من الأذان بأربعة أشياء هي[٣] :

١ـ إظهار شعار الإسلام .

٢ـ إعلان كلمة التوحيد .

٣ـ الإعلام بدخول وقت الصلاة .

٤ـ الدعوة إلى الجماعة .

فالأذان إذنْ إعلام للمسلم بوقت الدعوة التي عليه أن يلبِّيها بالانضمام إلى الأمة المجتمعة على كلمة « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » وشعارها « الله أكبر » .

فهل يدرك المسلمون اليومَ أن الأذان دعوةٌ تامةٌ كما سمَّاها رسول الله ﷺ ؟ وكيف يفهمون الأذان ليكون الدعوةَ التامة ؟ .

* * *

---

(١) انظر فتح الباري ١/ ٥٤٠ـ٥٤١ ، وعمدة القاري ٥/ ١٢٢ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ٢/ ٣٢٤ .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب بدء الأذان ٢/ ٣١٣ .

تمهيد :

يمرُّ الإنسان كلَّ يومٍ في طريقه إلى بيته غير ما مرة ، فلا يلفت نظره فيه شيءٌ إلا إذا كان جديداً ؛ لأنه أَلِفَ كل ما فيه ، ويدخل بيته فلا يجذب نظره شيءٌ لأنه عرفه وحفظ مكان كل قطعة أثاث فيه ، ويسمع الخبر أو النكتة أول مرة فيصغي لذاك ويضحك لتلك ، فإذا تكرَّر سماعه لما سمع لم يصغ إلا مجاملة ، ولم يضحك إلا تبسُّماً ، ثم لايصل من أثرهما إلى نفسه ما وصل إليها لدى سماعه لهما أول مرةٍ .

وهكذا يتغير وقع النظر على العين ووقع السمع على الأذن ، وينتقل الشعور بالجدة إلى شعور بالإلفة والاعتياد ، وللشعور بالجدة أثر في النفس والقلب ، وأما المألوف المعتاد فلا يتجاوز أثره العين إذا كان منظوراً ، ولا يتجاوز الأذن إذا كان مسموعاً ، لذلك كان الشعراء إذا أرادوا المبالغة في وصف الحُسْن جعلوه جديداً فقالوا : له في العيون حسن جديد .

وإذا كان الإلف يقلِّل الأثر النفسي بالشيء المألوف ، وكان ذلك مفيداً في حالات وأعمال معينة لابدَّ أن يألفها الإنسان ليقوم بها آلياً ، ملقياً عن نفسه آثارها كإلفه المشي والسباحة وقيادة السيارة ، فإنَّ هذا الإلف يصبح خطراً في حالات أخرى ، ويصبح ثقلاً يَجهد المرء للتخلُّص منه في سبيل العودة إلى إحياء شعوره بما يرى أو يسمع ، وكأنه يراه أو يسمعه لأول مرة .

ولا شك في أن المسلم يقرأ القرآن ويلازم قراءته ، ويسمعه ويلازم سماعه حتى تغدو القراءة أو التلاوة عادةً أو إلفاً ، فإذا غدت كذلك انتقلت التلاوة إلى ألفاظ تتحرك بها الشفاه ثم لا يصل من ذلك شعور إلى النفس أو أثر إلى القلب ، وذلك هو الخطر الذي يقع فيه الإنسان أحياناً ، فيصبح القرآن كلاماً تردِّدهُ الشفاه كأيِّ كلامٍ آخر مألوف .

لعل أخطر ما يؤثر في التديُّن لا في الدين أن يصبح عادةً مألوفة ، وأن تقوم به الجوارح عملاً آلياً وتقليداً يومياً دون أن يعيه الضمير ويفكر فيه العقل ويمتلىء به القلب .

أي أن ينتقل من فطرة فطر الله النفس الإنسانية عليها فهيمنت على المرء شعوراً وعقيدةً وفكراً وسلوكاً إلى عادةٍ آلية تقليدية ألف الإنسان شعائرها حتى غدا يقوم بها بعيداً عن القلب والفكر والشعور والوعي .

ولقد ابتعد الزمن بالمسلم اليوم عن زمان نزول الوحي وعن زمان مبلِّغ الوحي ، فأصبح يتلو آيات الوحي أو يحفظها حفظاً تقليدياً ، يردِّدها لسانه ويجوِّدُ حروفها ، وقلَّ أن يبلغ أثرها نفسه وقلبه ، بعد أن كان المسلم القريب العهد من نزول الوحي ومبلِّغ الوحي لا يلبث أن يسمع حتى يخشع ويخضع ، ولا يكاد يسمع أو يحفظ حتى يعي وينفِّذ ، وكأن الآية صبغته أو صاغته وكأنه في ضوء معناها صياغة جديدة لمسلمٍ قرآني .

وكذلك ابتعد به الزمن حتى لم يعد يُحكم الربطَ أو الصلةَ بين سلوكه عامَّةً وسلوكه الدينيِّ خاصَّةً ، وبين القرآن بمعانيه وأحكامه والحديث بهدايته وتوجيهه .

إن المسلم اليومَ قليل الانفعال بالقرآن ـ على قراءته له ـ بل لعل بعض المسلمين ينفعلون لصوتِ القارىءِ إعجاباً وسروراً وطرباً أكثر مِمَّا ينفعلون لمعاني الآيات خشوعاً ورهبةً وتذلُّلاً وخوفاً .

ومن هنا كانت النصيحة الثمينة أن يقرأ أحدنا القرآن كأنما يتنزَّل عليه ، ليتحقق في نفسه وفكره معنى قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٤].

وكذلك يألف المسلم الصلاة ، وما أكثر الذين ألفوها ، فإذا هي عندهم حركات يؤدونها ، وألفاظ يردِّدونها ، والنفس بعيدةٌ عن السكينة والاطمئنان والشعور بما يقتضيه وقوف العبد بين يدي ربه من رهبةٍ وخشوعٍ وجلال ،

والفكر جوَّال في دنياه غائبٌ عن معنى ما يقوله اللسان ، بعيدٌ عن الشعور بالرهبة والخشوع والجلال .

ومن هنا كان على المصلِّي أن يكون حاضرَ الفكر ، خاشعَ القلب ، مطمئنَّ الجوارح .

* * *

« اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبر »

ولقد ألف المسلم الأذان في جملة ما ألف ، فهو يسمعه كلَّ يومٍ خمس مراتٍ يتردَّدُ صداه في الآذان ، ويردِّد ألفاظه اللسان ، دون أن يشدَّهُ اللفظ إلى حقيقة معناه حتى عند كثيرٍ ممَّنْ يلبُّون الدعوة ويستجيبون للنداء .

والأذان صوتُ الدعوة الربانية لتذكير المسلمين بوقت الامتثال لقوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة : ٢/٤٣] ، ولكنَّه ليس مجرَّد صوتٍ يذكِّر بوقتِ الفريضة ، بل هو شعارٌ يعلن عقيدة ، ودعوةٌ إلى عملٍ وسلوك .

فإذا قال المؤذن : « اللهُ أكبر » فقد كبَّر كبيراً وعظَّم عظيماً وأعلن أن كل ماعداه صغيرٌ ، فإذا تدبَّرتَ معناها امتلأتْ نفسُكَ بعظمةِ الله وكبريائه ، فلم ينازعه في نفسِكَ من دنياكَ كبيرٌ .

« اللهُ أكبر » كلمتان خفيفتان على اللسان ، ولكنَّهما في المعنى بعيدتان عميقتان ، ولما فيهما من بُعد ، ولما تنطويان عليه من عمق ، ولِما تبعثانه في قلب قائلهما من قوة ، كان المؤذِّن يردِّدهما في كل يوم ثلاثين مرَّةً ، وكان المصلِّي يردِّدهما عند كل حركة في الصلاة ، يقولهما في مفتتح صلاته وعند كل ركوعٍ أو سجود .

فإذا تجاوز قول القائلِ « اللهُ أكبر » لسانَه ، وتمثَّل حقيقةً إيمانيةً في قلبه ، كان اللهُ بحقِ عندَه أكبر ، ولم يعد في قلبه من دنياه إلا ما هو أصغر ، فإذا شغلته الحياة نهاراً ، وشدَّته المغريات ، ودخل قلبَه حبُّ الدنيا ، انتشلته « اللهُ أكبر » ، وإذا آذن نهاره بالانقضاء ، وراح يستعدُّ لاستقبال الليل ، انتشلته في

آخر النهار « الله أكبر » ، وفي أول الليل « الله أكبر » ، وإذا قضى ليله وآذن فجر يوم بالطلوع نبّهته « الله أكبر » ، فإذا هي رفيقة حياته فجراً وظهراً وعصراً ومغرباً وعشاءً ، وإذا داخلته وساوس الشيطان في صلاته فسها أو انصرف عنها بفكره جاءت « الله أكبر » لتعيده إلى الحقيقة التي سها أو انصرف عنها ، فإذا عاد بفكره وقلبه كانت « الله أكبر » مصدرَ قوة يستمدُّ منها قوته ، فإذا هو بها كبير ، وإذا كلُّ شيءٍ بإزائها صغير ، ولذلك كان نشيد المسلم وهتافه في حروبه ومعاركه « الله أكبر الله أكبر » .

« اللهُ أكبر » في الأذان أوله وآخره .

« اللهُ أكبر » في الصلاة ، أولها وعند كل ركوعٍ وسجود .

« اللهُ أكبر » في الحج ، في السعي ، عند الرمي .

« اللهُ أكبر » في العيد .

« اللهُ أكبر » تملأ حياة المسلم في سلمه وحربه ، في ذكره وتسبيحه وعبادته .

أليس تكرارها دليلاً على وجوب انتقالها من اللسان إلى القلب ، ومن القول إلى العمل ؟ إن « الله أكبر » تعبِّر عن حقيقة إيمانية جسَّدها رسولُ الله ﷺ حين استعلى على الدنيا بما فيها من مالٍ ومناصب ونساء ، فرفضها جميعاً حين عرضت عليه قريشٌ على لسان عمه أبي طالبٍ المالَ والملكَ والنساء .

ولست أرى الفرق بين ما كان عليه المسلمون يوم سادوا وثاروا ودعَوْا وهدَوْا وعزُّوا ، وبين ماهم عليه اليومَ من صَغارٍ ، إلا فرقاً بين « اللهُ أكبر » تُقال باللسان و « اللهُ أكبر » حقيقةٌ إيمانيةٌ في القلب يعيها قائلها ، فإذا هو بها كبيرٌ قويّ ، يخاطبه ربُّه سبحانه : ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٣٩] .

إن « اللهُ أكبر » إذا امتلأ بها قلب المؤمن ارتفع بها فرأى كلَّ ما عدا اللهَ

صغيراً ، فكان هو كبيراً بقدر إيمانه بها ، فلم يُعطِ الدنيَّةَ من نفسه أو دينه ، ولم يقبل بها بديلاً ، وكان بها عزيزاً في نفسه ودينه لأنَّ عزَّته مستمدَّة منها ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨/٦٣] .

وإذا كان من أساليب العربية أن نذكر في مثل هذا التركيب مفضَّلاً عليه مسبوقاً بـ « من » فنقول : هذا أجمل من ذاك ، فإن قولنا : « الله أكبر » لا نذكر معه مفضلاً عليه لأن التفضيل يعني أن المفضَّل والمفضَّل عليه اشتركا في صفةٍ وزاد المفضَّل على المفضل عليه في تلك الصفة ، ومن ذا الذي يشارك الله سبحانه وتعالى في صفةٍ من صفاته ، تنزَّهتْ أسماؤه وتقدَّست صفاتُه ، حتى نذكره بإزائه ولو بصيغة التفضيل ؟!! .

ثم إن ذكر أي شيءٍ بعد قولنا « اللهُ أكبر » سيكون لغواً من الكلام وعبثاً ؛ لأنه سبحانه أكبر من كل كبير وأكبر من كل شيءٍ ، فمهما ذكرت بعده من شيء فهو أكبر ، أي هو الأكبر وهو الكبير .

وكل وصفٍ جاء بصيغة التفضيل مسنداً إلى اسم الله سبحانه فهو بمعنى الصفة التي لا تدانيها صفة ، لذلك جاءت على صيغة التفضيل إشعاراً بتفرُّدها ، ولم يأت بعد التفضيل مفضَّل عليه إشعاراً بالوصفية المتفرِّدة .

* * *

« أشهدُ أنْ لا إلٰه إلاّ الله »

وإذا قال : « أشهد أن لا إله إلا الله »، فقد أعلن كلمة التوحيد ، وأولَ أركان الإسلام وعماد الإيمان ، فقد نفى الألوهية عن كل من سوى الله ، وأثبتها له وحده سبحانه .

و « لا إلٰه إلا اللهُ » ليست مجرد شهادة على اللسان ، بل هي عقيدةٌ في القلب ، والعقيدة يقين لا شك فيه ، وعلمٌ لا يأتيه الباطل ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : ٤٧/١٩] ، ولذلك قال ﷺ : « مَنْ ماتَ وهو يعلمُ أنَّه لا إلٰهَ إلاّ اللهُ ، دَخَلَ الجَنَّةَ »[١] ، ولذلك قال ابن تيمية : من اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة فهو ضالٌّ مخالف للكتاب والسنة ، لأنها في الكتاب والسنة مقترنة بالعلم ، والعلم يقتضي اليقين ، واليقين ضد الشك ، ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ [الحجرات : ٤٩/١٥] .

و « لا إله إلا الله » حقيقة أعلمنا بها سبحانه ، وأمرنا بعلمها واعتقادها ، ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : ٤٧/١٩] ، وشَهِدَ بها ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

[آل عمران : ٣/ ٢٨] .

وهي الحقيقة التي أوحى بها إلى رسله جميعاً ، والشهادة التي طالب بها الناس جميعاً ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢١/ ٢٥] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦) من حديث عثمان .

« لا إله إلا الله » يلقَّن بها المسلم حين يولد ، ويذكَّر بها حين يلحد ، فما أجدر بمن تبدأ حياته بـ« لا إله إلا الله » وتنتهي بـ« لا إله إلا الله » أن يكون فيما بين الشهادتين مستقيماً لله على ما تقتضيه كلمة التوحيد من حبٍّ وإخلاصٍ وسلوكٍ وتسليمٍ لربِّ العالمين .

« لا إله إلا الله » حقيقة إذا وعاها المسلم أيقن أنه « لا إله » أي لا خالق ولا مميت إلا الله ، و « لا إله » أي لا رازق إلا الله ، و « لا إله » أي لا معزَّ ولا مذلَّ إلا الله ، وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، من عنده النصر ، وبيده الأمر كلُّه ، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف : ٧/ ٥٤] ، وآمن أنه لو اجتمع الناس على أن ينفعوه بشيءٍ لا ينفعونه إلا بشيءٍ كتبه اللهُ له ، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوه بشيءٍ لا يضرونه إلا بشيءٍ كتبه اللهُ عليه ، وبذلك يصبح المسلم بـ« لا إله إلا الله » قوياً لا ترهبه قوة البشر ، عزيزاً لا يذل ، أبيّاً لا يعطي الدنيَّةَ في دينه ولا دنياه .

لو وعى المسلم حقيقة « لا إله إلا الله » لكان ثورةً على نفسه فلا تطغى ، وعلى الخوف فلا تخاف ، وثورةً على الظالم فلا يظلم ولا يستبدُّ ، ولذلك كانت « لا إله إلا الله » شعاراً يخافه الذين يخضعون لشهواتهم فيحبون المال ، أو يحبون المناصب ، أو يحبون السلطة ، أو يحبون الظلم ويستعمرون الشعوب .

* * *

« أشهد أنَّ محمداً رسولُ الله »

« أشهد أن محمداً رسول الله » هي الحقيقة الإيمانية الثالثة من نداء الأذان ، ذلك أن الأذان ثلاثة أقسام :

أما القسم الأول فيضم ثلاث أفكار أو يعبر عن ثلاث حقائق ، أولاها « الله أكبر » ، وثانيتها الشهادة بالتوحيد « أشهد أن لا إله إلا الله » ، والثالثة الشهادة بنبوة محمد ﷺ ورسالته « أشهد أن محمداً رسول الله » .

وأما القسم الثاني فدعوة إلى الصلاة ودعوة إلى الفلاح .

وأما القسم الثالث فإعادة لتأكيد عظمة الله سبحانه ووحدانيته ، والشهادة بأن محمداً رسول الله مقترنة بكلمة التوحيد ، فلقد جاء ﷺ محارباً للشِّرك داعياً إلى التوحيد الخالص ، وكان هو الطريق إلى الله ، إذْ كان عبدَ الله ونبيّه ورسولَه إلى الناس ، تلقَّى رسالة ربه إذ تنزَّل الوحيُ عليه ، فقام يبلِّغ الرسالة ويؤدِّي الأمانة وينشر الدعوة إلى الله ، وكانت حياته ﷺ شرحاً لما جاء في الوحي وتفسيراً لما أوجزه ، وكان في قوله وفعله صورةً للإنسان الأمثل كما أراده الله حتى طولبنا أن نقتدي به ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٣/٢١] ، وكان اتِّباعه هو الطريقَ إلى اكتساب حب الله ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣/٣١] ، وكانت سنته شرعاً من شرع الله ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٥٩/٧] ، لأنه ﷺ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٥٣/٣-٤] .

ذلكم هو محمد ﷺ عبد الله ورسوله وخاتم أنبيائه الذي اقترنت الشهادة

بوحدانيته سبحانه بالشهادة برسالته ﷺ ، والذي أرسل إلى الناس كافةً بشيراً برحمة ربه وجنته ونذيراً بعذابه وعقابه . . .

« واللهِ لَتموتُنَّ كما تنامون ، ولتُبْعَثُنَّ كما تَستيقِظُون ، ولَتُحاسَبُنَّ بما تعملون ، وإنها لَلْجنَّةُ أبداً أو النارُ أبداً ، وإنكم لَبينَ يدَيْ عذابٍ شديدٍ »[1] .

ولقد أكرمه ربه فاصطفاه لوحيه ورسالته وأثنى على خُلُقه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٦٨/٤] ، وخصَّه بالإسراء ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء : ١٧/١] ، وأكرمه بالعروج إليه ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ٥٣/١١ـ١٨] ، وشرح صدره وأعلى ذكره ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ٩٤/١ـ٤] ، وذكر اسمه مقروناً بالرسالة ، ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح : ٤٨/٢٩] ، وصَلَّىٰ عليه وصلَّتْ ملائكته عليه ، وأمرنا أن نصلي عليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣/٥٦] . اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارك على مُحمَّدٍ وآله .

* * *

(١) قطعة من حديث النبي ﷺ قاله عندما جمع عشيرته الأقربين أوله : «إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة . . . » . السيرة الشامية ٢/ ٤٣٢ .

« حَيَّ على الصَّلاةِ ، حَيَّ على الفَلاح »

يبدأ الأذان بالتذكير بالحقائق الإيمانية الثلاث : الله أكبر ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فتمتلىء نفس المسلم بما وعت من عظمة الله ووحدانيته سبحانه ، وبما آمنت به من نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته ، وتصبح مهيأة للتحرك والعمل فتأتيها الدعوة إلى ذلك بـ « حيَّ على الصلاة » و « حَيَّ على الفلاح » .

إنها دعوةٌ للإقبال إلى الصلاة والانضمام إلى الجماعة ، ودعوة إلى الفلاح ، وما الصلاة إلا الطريق إلى الفلاح ، لأن الفلاح هو الفوز والنجاة .

والصلاة عماد الدين ، وآخر وصايا سيد المرسلين : « الصلاةَ وماملكتْ أيمانكم »[(١)] ، وعن ابن مسعودٍ قالَ : « سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ أيُّ العمل أحَبُّ إلى اللهِ تعالى ؟ فقالَ : الصلاةُ على وقتها ، قلتُ : ثم أيٌّ ؟ قال : بِرُّ الوالدين ، قلتُ : ثم أيٌّ ؟ قالَ : الجهاد في سبيل الله »[(٢)] .

وقال ﷺ : « إن أولَ ما يحاسب عليه العبدُ يومَ القيامةِ من عملِهِ الصلاةُ ، فإن صَلُحَتْ فقد أفلَحَ وأنجَحَ ، وإنْ فَسَدَتْ فقد خابَ وخَسِرَ »[(٣)] .

والفلاح في الصلاة إنما يكون بتمامها ، ومن تمام الصلاة أن تؤدَّىٰ بتؤدة

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١١٧ ، وابن ماجه (٢٦٩٧) ، وابن حبان (٦٦٠٥) من حديث أنس بن مالك .

(٢) متفق عليه ، البخاري (٥٢٧) ، ومسلم (٨٥) .

(٣) أخرجه الترمذي (٤١٣) ، والنسائي ١/ ٢٣٢ من حديث أبي هريرة .

وأناة وخشوع واطمئنان ووعي المرء فيها لما يقرأ ، ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون : ٢٣/١-٢] ، أما الذين يؤدونها سرعة في القراءة ، وسرعة في الحركة ، وسهواً وانشغالاً عنها في الفكر ، وانصرافاً عنها بالقلب ، فقد سرقوها ، وسارِقو الصلاةِ أسوأ السارقين ، قال ﷺ : « أسوأُ النَّاسِ سَرِقَةً الذي يَسرقُ صَلاتَه ، قالوا : يارسولَ الله ، كيف يسرقُ صلاتَه ؟ قال : لا يُتِمُّ ركوعَها ولا سُجودها »(١) ، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه : الصلاة مِكْيالٌ فَمَنْ وَفَّىٰ وُفِّيَ له ، ومَنْ نقصَ فقدْ علمتُمْ ماقيلَ للمُطفِّفين(٢) .

إذا كنت واقفاً في صلاتك فأنت بين يدي ربك .

وإذا استشعرت أنك بين يديه سبحانه فحاول أن تفهمَ معانيَ الآيات التي تقرأ ، ولا تشغلك هموم دنياك عن المعاني لتكونَ مع الله بفكرك وقلبك ، فإذا كنتَ معه كان معكَ ، وكانت صلاتُكَ وسيلةَ قربك .

إن العبد بين يدي خالقه سبحانه على ذكر باللسان وبالقلب ، وعلى تفكُّرٍ بالعقاب المخوف والرحمة المرجوَّةِ ، وعلى خشوعٍ وتضرُّعٍ وذلة وانكسار ، يلهَجُ بالثناء على ربه بما أثنى به سبحانه على نفسه ، فهو لا يحصي ثناءً عليه كما أثنى هو على نفسه ، ويكرِّرُ حمدَه بما حمد به نفسه سبحانه وبما أنزله من ثناء وحمد نتلو به قرآنه ، مُقبلاً عليه بشعوره ووجدانه ، عبداً مخلصاً ضارعاً متوسِّلاً يرجو الهداية ويطلب العون .

فإذا كانت الصلاة مستوفاة، وكان القلب فيها حاضراً والنفس مطمئنة غشيها الخشوع وأفلح مؤديها وأنجح ، ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون : ٢٣/١-٢]، وإذا غشيها الخشوع كانت نوراً في القلب وراحة

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣١٠، والدارمي (١٣٠٢) من حديث أبي قتادة .

(٢) أخرجه البيهقي ٢/ ٢٩١ من حديث سلمان موقوفاً .

في النفس وقرَّةً للعين ، لذلك كان ﷺ يقول : « أرِحْنا بِها يا بلالُ »[1] ، إذ إنها تمنح المصلِّيَ راحةً نفسيةً لا تعدلها راحةٌ ، وقال ﷺ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاة »[2] ، وقال ﷺ : « إنَّ أحدَكم إذا صلَّىٰ يناجي ربَّه »[3] ، فليحذر أحدُنا أن ينشغل بغير الله وهو بين يدي ربه ، أو أن يسهو وهو يناجيه .

وهكذا فالأذان هو الدعوة التامَّة لأنه جامع لكل ما يدعو إليه شرع الله سبحانه وتعالى من الإيمان بذاته سبحانه ، وتنزيهه ، والشهادة بوحدانيته ، وبنبيِّه ﷺ وما أوحي إليه وبُعث به ، والتصديق برسالته ، والقيام بما أمرت به تلك الرسالة من عبادة وعمل صالح ، من صلاة هي عماد الدين ، ومن عمل يؤدي بصاحبه إلى الفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة .

ونقول تفصيلاً لما أوجزنا ، وتبياناً لشمول الأذان لتلك المعاني : إن الأذان يبدأ بقولنا : (الله أكبر) ، أما قولنا (الله) فإثبات لذاته سبحانه وتعالى ، فلفظ الجلالة اسم علم على الذات الإلْهية ، و (الـ) فيه ليست للتعريف ، بل هي زائدة وزيادتها لازمة ، لأنها لاتنفصل عن لفظ الجلالة ، وشأنها فيه كشأنها في الاسم الموصول (الذي ، التي) ، فهي لا تعرِّف الاسم الموصول ، بل تعرِّفه صلته التي لا تنفك عنه ، مذكورةً أو مقدَّرةً ، وتبقى (الـ) متصلةً به لا تنفصل عنه ، لذلك كانت زائدة لازمة .

و (الله) اسم يتفرَّد به سبحانه وتعالى ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ١٩/٦٥] ، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه : ٢٠/٨] .

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٧١ ، وأبو داود (٤٩٨٥) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ لم يسَمَّ .

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ١٢٨ ، والنسائي ٧/ ٦١ من حديث أنس بن مالك .

(٣) أخرجه البخاري (٥٣١) من حديث أنس .

وبعد إثبات الذات بقولنا (الله) يأتي قولنا (أكبر) ليدلَّ على ما هو سبحانه أهل له من صفات الكمال ، لا نحصي ثناءً عليه كما أثنى هو على نفسه .

ثم تأتي الشهادة بالوحدانية (أشهد أنْ لا إله إلا الله) في صيغة تُثبت الوحدانية وتنفي كلَّ ما عداها وما هو ضدُّها من صنوف الشرك والمشاركة .

ومتى استقرَّ الإيمان أو انتهت الدعوة من إعلان الإيمان بالله الواحد الأحد ، تأتي الشهادة بنبوة محمد ﷺ وصدق رسالته (أشهد أنَّ محمداً رسولُ الله) ، والإيمان بالرسالة يقتضي الإيمانَ بالنبوَّة والوحيِ ، وما جاء عن صاحب الرسالة ﷺ ، وما أمرت به الرسالة من أوامر وما نهت عنه من نواهٍ ، والتسليم بما دعت إليه ، والتصديق بما جاءت به ، وبذلك تتمُّ أركان العقيدة .

وإذا تم إعلان الإيمان واكتملت أركان العقيدة ؛ جاءت في الأذان مرحلة الدعوة إلى السلوك وما يوجبه الإيمان من عملٍ صالح ، وأول العمل الصالح الصلاة (حيَّ على الصلاة) لأنها أول ما يُطالَب به المسلم من عملٍ ، وأول ما يحاسَب عليه يومَ القيامةِ ، وهي عماد الدين ، وركن من أركان الإسلام ، وهي التي إذا صحَّت وسلمت كانت مفتاحاً لكل عمل خير مغلاقاً لكل عمل شرٍّ ؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهي رأس العبادات التي دعا إليها الإسلام ، يقيمها في جماعة ، يقوى بها وتقوى به ، فإذا تعذَّرت الجماعة أقامها منفرداً ، ولا يُعفى منها في حالٍ من الأحوال ، لأنها فروض بمواعيد جعلها رَبُّ العالمين لعباده ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ [النساء : ٤/١٠٣] .

والدعوة إلى الصلاة دعوةٌ إلى أول عمل أو إلى العمل الأول ، فإذا انتهت جاءت دعوة ثانية إلى كل عمل آخر من أعمال الخير والبرِّ والصلاح ، بقولنا (حَيَّ على الفلاح) ، والفلاح هو النجاة والفوز ، وليست الدنيا وحدها مضمار النجاح والفوز ، ولا دليلاً عليهما ، بل النجاح والنجاة والفوز في

الحقيقة إنما هو في إيثار العمل الصالح المقترن بالإيمان ، وفي النجاة من عقاب الله سبحانه ، والنجاة من النار ، والفوز بالجنة ونعيمها إذ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٨٥] .

وهكذا جاءت الدعوة إلى الفلاح في الأذان إيذاناً أو رمزاً إلى الآخرة التي لاينال نعيمها إلا المفلحون .

ونعود في القسم الثاني من الأذان إلى تكرار القسم الأول ، قسم العقيدة تأكيداً له وترسيخاً لمعانيه . وبذلك يكون الأذان هو الدعوةَ التامَّةَ بدءاً من الإيمان بالله ، وانتهاءً بالفلاح الذي هو عاقبةُ الإيمان بتلك الدعوة والعمل بمقتضاها ﴿ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [القصص : ٢٨/ ٣٧] .

إنما يفلح الذين ثقلت موازينهم عند ربهم ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٧/ ٨] . وثقل الميزان وخفَّة الميزان لايكونان إلا في يوم الحساب ، يوم يوضع الميزان ويدعى العباد إلى الحساب ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة : ١٠١/ ٦-١١] .

* * *

تدبُّر القرآن والعملُ به

إن المسلم يعجب حين يفكر في الفرق بين ما كان عليه الإسلام والمسلمون من عزةٍ حين كان الإسلام حضارةَ الحضارات ، وكان المسلمون أمة الأمم ، وبين ما صاروا إليه اليومَ من تشتُّتٍ وهوان . ويزداد العجب حين يرى أن الإسلام هو الإسلام ، والقرآن هو القرآن! .

إن السرَّ في فرق ما بيننا وبينهم ، بين ماكانوا عليه وما صِرنا إليه ، هو أنهم عرفوا الجوهر فعُنوا به ، وعرفناه فتركناه وانصرفنا إلى العَرَض ، هم عرفوا الحقائق فعاشوا بها ولها ، وأما نحن فقد ألهتنا المظاهر .

لقد كان الإسلام عقيدة آمنوا بها عقلاً وقلباً ، وكان عملاً نفَّذوه سلوكاً ومنهجَ حياة . . فصار كلاماً وجدلاً ، وصار زعماً وادِّعاء ، وصار صورةً ورمزاً . . . كان صوتاً يهزُّ الوجدان ، ويبعث الحياة في الإنسان ، فصار وعظاً لا يجاوز الآذان! .

كان المسلمون يسعى بذمَّتهم أدناهم ، فصاروا يتعامى عن مصالحهم أعلاهم ، كانوا جسداً واحداً ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعتْ له سائرُ الأعضاء بالسهر والحُمّىٰ ، فصاروا كلٌّ منهم جسد ، ولكل جسد مصلحة! ولا شأن لأحدهم بالآخر . . لقد استبدلوا بشرع الله شرع الغرب فتدابروا تحت شعار « عدم التدخُّل بالأوضاع الداخلية » ، وكانوا يقاتلون لرفع الظلم عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، فصاروا إذا اهتمُّوا أو تحرَّكوا يستنكرون الظلم ويندِّدون و(يشجبون) . . . !

ولعل في الحياة المادية العملية اليومَ ما يعكس هذا الذي ذكرتُه عن الحياة الفكرية والدينية ، وما وقع فيها من تحويل وتبديل وانحراف .

لقد كان السيف في يد أحدهم سلاحاً ماضياً ولو كان قرابه خرقةً بالية ، فأصبح يُفضَّضُ ويُذَهَّب ويُرَصَّعُ بالجواهر ولكن ليُعَلَّقَ زينةً على الجدران!

وأعدُّوا الخيلَ قوةً يرهبون بها عدوَّ اللهِ وعدوَّهُم ، وأعددناها للمواكب ومباريات السباق!

وأعدُّوا القوة لنجدة المستغيث ونصرة الضعيف ، وحماية الدين والوطن ، واشتريناها بالملايين والمليارات ، واقتطعنا أثمانها من قوت الشعب ، ثم جعلناها أداةً للاستعراضات وعرض العضلات وإرهاب الشعب!

الفرق بيننا وبينهم أن صوت امرأة تنادي : « وا إسلاماه » يحرِّكُ جيشهم إلى أقصى الأرض لينقذها ، وصوت شعوب تذبَّح أن تقول لا إله إلا الله ، لا نسمع منه إلا الصدى ، ولا يحرِّك منَّا ـ إذا حرَّك ـ إلا اللسان!

الفرق بيننا وبينهم أننا عُنينا من كتاب الله بشكله ؛ فأتقنَّا طباعته ، واختيار ورقه ، وجودة تجليده ، وجمال زخرفته ، وروعة خطِّه ، حتى صار بعض الناس يقتنيه بل يقتني غير نسخة منه لما فيها من جمالٍ وروعة! وتكاثرَ الناس في ذلك ، وتنافس الحكَّام في إصدار المصاحف حتى أصبحنا نسمع وصف النسخة من المصحف بأنها قطعة فنيَّة نادرة! واقتناه الكثيرون لتزيين مكتباتهم . ولو نظرنا إلى فرق ما بيننا وبينهم في ذلك لرأينا أعجب العجب ؛ لقد كتبوه ليحفظوه ، وحفظوه لتعيه عقولهم وقلوبهم ، ووعَوْه ليعملوا بما فيه ، فسادوا وشادوا ، ونحن كتبناه وطبعناه واحتفظنا به قطعة فنيَّةً جميلةً ترضي العينَ والذوق ، وكتاباً دينياً مقدَّساً للبركة في البيت وفي السيارة وفي الجيب وعلى الصدر .

كانوا إذا تُليتْ عليهم آياتُهُ زادتهم إيماناً ، وغشيتهم السكينةُ ، وامتلأتْ

قلوبُهُم بالخشوع وعيونُهُم بالدموع ، وغلتْ نفوسُهم كالمراجل شوقاً إلى الجنة ، وخوفاً من النار . وتلوناه وسجّلناه بأصواتٍ وألحان ، فإذا سمعناه انصرفنا إلى جمالِ صوت القارىء وروعة أدائه! وكثيراً ما نسمع ناساً يتصايحون بعد سماع مقطع من مقاطعه أو آيةٍ من آياته صيحاتٍ تعبّرُ عن الإعجاب! إعجاب الأذن بما تسمع ، وهي حالةٌ تدلُّ على أن هذا الذي يصيح إذ يسمع ، أبعد ما يكون عن القلب إذ يخشع ، أو النفس إذ تخضع ، أو العين إذ تدمع . وأين حالُنا من حالهم وقد قال واصفُهم عنهم : إنهم أنْضَاء[1] عبادة ، وأطْلاحُ[2] سهر ، منحنيةٌ أصلابهم على أجزاء القرآن ، إذا مرَّ أحدهم بآيةٍ فيها ذكرُ الجنة ؛ بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآيةٍ فيها ذكرُ النارِ ؛ شَهِقَ شهقةً كأن زفيرَ جهنمَ بين أذنيه! أليس ما نحن عليه اليومَ بعضاً مما أخبرنا به النبي ﷺ حين قال : « إنَّ العِلْمَ يُخْتَلَسُ من النَّاس حتَّى لا يَقْدِرُوا منهُ على شَيءٍ ، فلمَّا سأَلَ بعضُ الصَّحابة : كيفَ ومَعَنا القُرآن ؟ واللهِ لنَقرأَنَّه ولَنُقرِئَنَّه نساءنا وأبناءَنا ، أجابه ﷺ : ثَكِلَتْكَ أمُّكَ ، فهذهِ التَّوراةُ والإنجيلُ عندَ اليهودِ والنَّصارى فماذا تُغْني عَنهم ؟! »[3] وفسّر عبادةُ بنُ الصامتِ رضي اللهُ عنه قولَ النبيِّ ﷺ بأنه يُرفع الخشوعُ والعملُ به ، وأنك تدخلُ المسجد الجامع فلا ترى فيه خاشعاً على كثرة المصلين! .

وعابوا الذين يقرؤون القرآن فلا يجاوز ألسنتهم إلى قلوبهم . قال عبد الله بن مسعود : إن أقواماً يقرؤون القرآن لايجاوز تراقِيَهُم ، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه ؛ نَفَعَ[4] . وما أُنزل القرآن إلا لنتدبَّره ونعملَ بما فيه ،

---

(١) الأنضاء : جمع نِضو وهو المهزول . وأنضاه : هزله .

(٢) طَلَح البعيرُ : أعيا وتعب . وأطلحه الرجلُ وطلَّحه ، فهو طَلْح وطِلح وطَليح أي مُتعَب مهزول .

(٣) أخرجه الدارمي (٢٩٣) ، والترمذي (٢٦٥٣) من حديث أبي الدرداء .

(٤) أخرجه مسلم (٨٢٢) من حديث ابن مسعود موقوفاً .

والتدبُّر هو التفكر وفهم الخطاب والنظر في العواقب . قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٣٨/ ٢٩] وقال جلَّ اسمُه : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٤٧/ ٢٤] . وقال ابن عباس : « إن اللهَ تكفَّل لمن قرأ القرآن وعملَ به ألا يضلَّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ٢٠/ ١٢٣-١٢٦] » .

لقد كان القرآن نوراً في قلوب المسلمين ، فأصبح ألفاظاً على ألسن القارئين ، وكان لهم دستوراً ومنهاجَ حياةٍ فحفظهم ، وضيَّعه المسلمون اليومَ فضاعوا ، قال ابن القيِّم : من قرأ القرآن للدنيا وأبناء الدنيا فهو حافظ لحروفه مضيِّع لحدوده .

* * *

طُرق الهدىٰ وأبوابُ الخير

تبارك الذي جعل الدنيا دار اختبار ، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢/٦٧] ، ولا تكون الدنيا دار اختبار إلا إذا كان كلٌّ من الخير والشرِّ ، ومن الإيمان والكفر ، ومن الضلال والهدى ، ميسَّراً فيها .

فالخير في الدنيا كثير ، والشرُّ في الدنيا كثير ، ولكلٍّ منهما طريقٌ يؤدِّي إليه ، فمن أراد الخير سلك إليه سبيله ، ومن أراد الشرَّ سلك إليه طريقه . وقد بيَّن اللهُ سبحانه وتعالى طرقَ الخير وطرقَ الشرِّ ، وجعل للإنسان ما يبصِّره بهما ويدلُّه عليهما فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ٩٠/٨-١٠] والنَّجدان هما طريقا الخير والشرّ ، وقد بيَّنهما الله سبحانه وتعالى بما أوحى من رسالات ، وبمن بعث من رسل ، وفي تفسير القرطبي عن قتادة أنه قال : ذُكر لنا أن النبيَّ ﷺ كان يقولُ : « يا أيُّها الناسُ ، إنَّما هما النَّجدان ؛ نجدُ الخيرِ ونجدُ الشرِّ ، فلمَ تجعل نجدَ الشرِّ أحبَّ إليكَ من نجدِ الخير ؟ »[1] وقد أتاح الله لك أن تسير في أيِّهما شئتَ ، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[2] [الشمس : ٩١/٧-١٠] . ودلَّنا سبحانه على طريق الجنة ، وأرشدنا إلى أن بابها الإيمان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٦٥ ، وأخرجه الطبري في تفسيره من حديث قتادة مرسلاً .

(٢) وزكَّاها تزكيةً : نمَّاها ، ودسَّ الشيء : أخفاه . وتزكية النفس : تنميتها بالتقوى ، ودسُّها : نقصها وإخفاؤها بالفجور .

والاستقامة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصّلت : ٤١/ ٣٠] ، وأرشدنا إلى أن شكر النِّعمة طريقٌ إلى زيادتها ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ١٤/ ٧] ، ودلَّنا النبيُّ ﷺ على مفتاح الجنة وطريقها فقال : « مفتاحُ الجنةِ شهادةُ أَنْ لا إلٰهَ إلا الله »(١) ، وقالَ ﷺ : « إنَّ الصدقَ يَهدي إلى البرِّ ، وإنَّ البرَّ يَهدي إلى الجنَّةِ ، وإنَّ الرجلَ ليصدقُ حتى يكتبَ صدِّيقاً ، وإنَّ الكذبَ يَهدي إلى الفُجُورِ ، وإنَّ الفُجُورَ يَهدي إلى النَّارِ ، وإنَّ الرجلَ ليكذبُ حتى يكتبَ كذَّاباً »(٢) .

وقد عقد ابن القيِّم باباً في كتابه « حادي الأرواح » جمع فيه مفاتيح الخير ، وهو « الباب الرابع عشر في مفتاح الجنة » قال فيه :

« وقد جعل الله سبحانه لكل مطلوب مفتاحاً يفتح به ، فجعل مفتاحَ الصلاة الطُّهور كما قال ﷺ : « مفتاحُ الصَّلاة الطُّهور » ، ومفتاحَ الحجِّ الإحرامَ ، ومفتاحَ البرِّ الصدقَ ، ومفتاحَ الجنَّة التوحيدَ ، ومفتاحَ العلم حُسنَ السؤال وحسنَ الإصغاء ، ومفتاحَ النصر والظفر الصبرَ ، ومفتاحَ المزيد الشكرَ ، ومفتاحَ الولاية المحبةَ والذكرَ ، ومفتاحَ الفلاح التقوى ، ومفتاحَ التوفيق الرغبةَ والرهبةَ ، ومفتاحَ الإجابة الدعاءَ ، ومفتاحَ الرغبة في الآخرة الزهدَ في الدنيا ، ومفتاحَ الإيمان التفكُّرَ فيما دعا الله عباده إلى التفكُّرِ فيه ، ومفتاحَ الدخول على الله إسلامَ القلب وسلامَته له والإخلاصَ له في الحبِّ والبغض والفعل والتَّرك ، ومفتاحَ حياة القلب تدبُّرَ القرآن والتضرُّعَ بالأسحار وتركَ الذنوب ، ومفتاحَ حصول الرحمة الإحسانَ في عبادة الخالق والسعيَ في نفع عبيده ، ومفتاحَ الرزق السعيَ مع الاستغفار والتَّقوى ، ومفتاح العزِّ طاعةَ الله ورسوله ،

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٤٢ من حديث معاذ بن جبل .

(٢) متفق عليه ، البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود .

ومفتاحَ الاستعداد للآخرة قصرَ الأمل ، ومفتاحَ كلِّ خيرٍ الرغبةَ في الله والدار الآخرة ، ومفتاحَ كلِّ شَرٍّ حبَّ الدنيا وطول الأمل » .

وليس صعباً على الإنسان وقد أنعم الله عليه بالهدى وزيّنه بالعقل أن يعرف طرق الخير ، وأن يميزها من طرق الشرِّ ، ولكنه في حاجة إلى مجاهدة للنفس ومحاربةٍ لهواها ؛ لأن إغراءات الشرِّ أشهى إلى النفس من مكاره الخير ، ولذلك قال ﷺ : « حُفَّتِ الجنَّةُ بالمَكَارهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهواتِ »[1] .

وللشهوة سلطانها ، وللنفس سطوتها ووسوساتها ونزعاتها ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [الأعراف : ٧/٢٠٠] . وإذا تمكّنت التقوى في القلب كان صاحبه في تفكُّر وذكر دائم لربِّه ، ومن كان في ذكرٍ وتفكُّرٍ كان بعيداً عن العمى والضلال ، ومن كان في غفلةٍ ونسيانٍ وإعراضٍ اجتاحته الجوائح ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : ٤٣/٣٦] . وأما المتَّقون فهم الذين يذكرون ، وإذا غفلوا تذكَّروا فأبصروا فاهتدوا ، لأنهم كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٧/٢٠١] .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) من حديث أنس بن مالك .

ويمنعون الماعون

الماعون في اللغة : الطاعة . وروي عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال : « الماعون : الزكاة » .

وجمع اللغوي ابن سِيْدَه المعنيين فقال : « الماعون : الطاعة والزكاة » . والماعون أيضاً : أسقاط البيت ؛ كالدَّلو والمِطرقة والقِدْر والقَصْعة ، ولذلك قال ثعلب : « الماعون : كل ما يُستعار » .

فالماعون إذن اسمٌ جامع لمنافع البيت التي جرتِ العادة بعاريتها ، واسم جامع للمعروف كلِّه[١] .

وقد ذكر القرطبي في تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » كل تلك المعاني وفصَّل فيها وزاد عليها[٢] عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾

[الماعون : ١٠٧/ ٤ـ٧] .

وقد كان المفسِّرون قديماً يتحدثون عن الذين يمنعون ماعونهم ، أما نحن فقد عرفنا في ناسٍ زماننا من لا يكتفون بمنعِ ماعونهم فقط بل يمنعون الناس بذل ماعونهم ويعلِّمونهم عدم بذل المعروف! وهذه أمثلة من هؤلاء الذين ينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ ، ويعلِّمون الناسَ منعَ الماعون .

---

(١) انظر لسان العرب (معن) .

(٢) تفسير القرطبي ٢٠/ ٢١٢ ـ ٢١٥ .

ويمنعون الماعون :

طرق عليَّ الباب في أحد الأيام رجلٌ يسكن في الحيِّ الذي أقيم فيه ويمكن أن أطلق عليه مجازاً وصف جاري . حيَّاني الرجلُ وطلب إليَّ أن يستعير سُلَّماً طويلاً من عندي لأن سُلَّمه قصير لا يُبلِّغه السقف ، وأسرعت فأحضرت له السلم فأخذه وانصرف شاكراً .

ومضت الأيام ونسيتُ السلَّم حتى دعت إليه الحاجة في بيتي فتذكرته ، فذهبت إلى بيت ذلك الجار وطلبتُ السلَّم فأحضره الرجلُ لي ، فأخذته ورحتُ وأنا ابن الستين أنوء بحمله وأصعد به الدرج لاهثاً حتى وصلتُ إلى البيت فألقيته وألقيت بنفسي وراءه وأنا ألهث وأعجب ، أما كان على مستعيره أن يعيده قبل أن أطلبه ؟ ! . . . أما كان عليه وقد طلبته أن يعرض عليَّ أن يحمله عني كما حمله حين دعته حاجته إليه ؟ ! هل سأعيره إليه ثانيةً أو إلى غيره لو أن أحداً طلب أن يستعيره ؟ .

واقترض صديقٌ مني مبلغاً يساوي ضِعْفَي مرتبي الشهري واتفقنا على موعد السداد ، وكرَّتِ الأيام والشهور وصارَ موعد السداد ، وكرَّت بعده الأيام والشهور ، وصديقي ـ وأنا أراه بين الحين والحين ـ ساكتٌ صامتٌ وكأنَّ شيئاً لم يكن ، وكلما ساورتني نفسي بمطالبته احتَلْتُ له بالعذر ، وقلت لعله ذو عسرةٍ فتجب نَظِرَةٌ إلى ميسرة . وانتظرت ثم فوجئت أن الرجل ذو ميسرة ، وأية ميسرة ، فهو الآن صاحب مالٍ وعقارٍ ، بل هو الآن صاحب سيارة أوصلني بها منذ أيام وحدثني أنه اشتراها حديثاً وحمد الله تعالى ثم قال : لقد وسَّعها ربُّك بحمد الله ، وتلا : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ . فقلتُ لهُ : لقد ذكرتني بقوله تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ قال : ماذا تعني ؟ قلتُ : أعني أنك تذكرت قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ونسيتَ قولَهُ تعالى : ﴿وأَوْفُوا بالعقودِ﴾ .

فهل نسيتَ موعدَ سدادِ ديني ؟ فتأتأ وتلعثم وقال : لا لا سيصلك دَينك قريباً إن شاء الله .

وقد مضت سنتان ومازلتُ أنتظر حتى الآن . .

واستقبلتُ أستاذاً صديقاً في مكتبتي ، وقلَّ أن أستقبل فيها ، ولمَّا كنتُ آتيه بالقهوة نهض واختار كتابين وضعهما أمامه ، ولمَّا همَّ بالانصراف قال : سأستعير هٰذين الكتابين ؛ أما أحدهما فسأصوِّره وأعيده بعد غدٍ إن شاء الله ، وأما الثاني فسيبقىٰ عندي أسبوعاً أو عشَرةَ أيامٍ على الأكثر .

ومضتِ الأيامُ الثاني والثالث والعاشر والشهر والشهران ولم يعدِ الكتاب ولا الكتابان وأنا بالهاتف أسأل وأرجو وأطلب وهو يعتذر ويماطل ويَعِدُ ويخلف .

وانتهى الأمر عندي إذ آليتُ على نفسي ألا أعيرَ أحداً شيئاً إلا إذا كنتُ مستغنياً عنه .

وألا أقرضَ أحداً مالاً إلا إذا كان فضلاً زائداً ، وأين ذاك ؟

وألا أعيرَ أحداً كتاباً ولا ساعةً من زمان .

أفليس هؤلاء وأمثالهم ممن يلقِّنون أمثالي دروساً في قلَّة الخير هم المعنيين بقوله تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ بلى ولا شك ، بل هم أول المعنيين بذلك لأنهم يمنعونه بأنفسهم ويعلِّمون الناسَ منعه .

* * *

عِباد وعَبيد

تطلق كلمة (العبد) على كل إنسان سواء أكان حُراً أم مملوكاً . قال ابن منظور في لسان العرب : « العبد : الإنسان ، حراً كان أو رقيقاً » .

والعبدُ : المملوك . وكل عبدٍ مملوك ، وليس كل مملوك عبداً ؛ لأنه قد يُملك المال والبيت وغير ذلك . ويرى سيبويه أن « العبد » في الأصل صفة ، قالوا : رجلٌ عبدٌ ، ولكنه استُعمل استعمال الأسماء ، لذلك جُمع على عَبدون وعَبيد وأعبُد وعُبدان وعِبدان وعبِّيدان وعِبِدَّان ومَعْبَدَة (كمَشْيَخَة) وعِبِدَّاء وعِبِدَّىٰ . . . وقد كثرت صيغ جمعه حتى نظمها ابنُ مالك شعراً ، ثم زاد السُّيوطي عدد جموعه في شرحه لعقود الجُمان .

ومن جُموعه (عُبُد) مثل سَقْف وسُقُف ، وبها قرأ ابنُ عباس قوله تعالى : ﴿وعُبُدَ الطاغوتِ﴾[1] .

وجاء « عِبِدَّاك » في حديث الاستسقاء : « هؤلاءِ عِبِدَّاك بفِناء حَرَمكَ »[2] وفي رواية : « عِبِّيداك » .

وجاء «عِبِدَّىٰ» في كلام عامر بن الطفيل ـ على ماجاء في السيرة ـ حين خاطب رسولَ الله ﷺ فقال عن أهل الصُّفَّة : « ما هذه العِبِدَّىٰ حولَكَ يا مُحَمَّد ؟ »[3] .

---

(١) الآية : ﴿وعَبَدَ الطاغوتَ﴾ [المائدة : ١٥/ ٦٠] وانظر قراءة ابن عباس وغيره في تفسير القرطبي ٦/ ٢٦٣ .

(٢) اللسان(عبد) .

(٣) اللسان (عبد) .

وتعبَّد : تنسَّك . والعابد : الموحِّد . والتعبيد : التذليل ، لذلك قيل للطريق إذا عبِّد بالوَطء أي ذلِّل ومُهِّد : طريق معبَّد . وللبعير إذا ذَلَّلهُ الجرَبُ فدهن بالقَطِران : بَعيرٌ مُعبَّد .

ولا يجوز تعبيد الإنسان للإنسان أي تذليله واستعباده ، لذلك قال ﷺ : « ثلاثةٌ لا تُقْبَلُ لَهُم صلاةٌ : الرجل يؤمُّ القومَ وهُم له كارِهون ، والرجُلُ لا يأتي الصلاةَ إلا دباراً (أي متأخِّراً عن وقتها) ، ومَن اعتَبَدَ محرَّراً »(١) أي جعلَ من الحرِّ عبداً . وفي رواية : « ثلاثة أنا خَصمُهم . . . ورجلٌ أَعْبَدَ حُرّاً » أي اتخذه عبداً وهو حرٌّ .

وقد جمعوا العبد بمعنىٰ المملوك على عَبيد . وقالوا : عَبدُ فلان ، بمعنى خادمه ، قال ﷺ : « لايقُلْ أحدُكُم لمَمْلوكِه عَبْدي وأمَتي ، وليَقُلْ فَتايَ وفَتاتي »(٢) استنكاراً أن تكون العبودية لغير الله تعالى(٣) .

والعبادة : الطاعة والخضوع ، وهي لا تكون إلا لله الخالق سبحانه وتعالى . وأما الطاعة فتكون للخالق وللمخلوق ، لأنها إنفاذ ما يريده المريد . والطاعة غير الخدمة ، لأن المطيع منفِّذ لأمر الآمر ، ولو لم يكن الآمر في حاجة إلى ما يأمر به ، فنحن في عبادتنا نطيع ربَّنا ، فنصلي ونصوم ، وهو سبحانه ليس في حاجةٍ إلى صلاتنا وصيامنا ، وهو الغنيُّ عن العالمين ، وأما الخادم فهو يسعى في قضاء حوائج مخدومه ، لذلك لايقال إن العبد يخدم الله ، ولكنه يطيعه ويعبده ، والطاعة إنما تقع من المطيع عن رغبة أو رهبةٍ أو عنهما معاً ﴿رَغَباً وَرَهَباً﴾(٤) .

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٩٣) ، وابن ماجه (٩٧٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة .
(٣) انظر اللسان (عبد) .
(٤) ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء : ٢١/ ٩٠] .

وكما جعلوا العبادة طاعةً وخضوعاً ، فقد جعلوا العبودية خضوعاً وتذلُّلاً ، لذلك قالوا : إن العبادة هي عملُ ما يرضي الرب ، وأما العبودية ؛ فهي الرضا بما يفعله الربُّ .

والعبادة تسقُطُ عن العبد في الآخرة ، وأما العبودية فباقيةٌ لا تزول ، وأشرفُ ما يتَّصِفُ به العبد أن تنسبَ عبوديته إلى الله تعالى فيقال : عبد الله . ومن تكريم الله سبحانه لنبيه أن أطلقَ عليه ذلك ووصفَه به فقال : ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء : ١/١٧] فأضاف عبوديته إليه سبحانه وتعالى ، ومن ذلك أيضاً تقديمُ العبودية على الرسالة في صيغة التشهد « وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » حتى ذهب بعضهم إلى أن العبودية أشرف من الرسالة ؛ لأنه ﷺ ينصرف بالعبودية عن الخَلق إلى الحقِّ ، وأما الرسالة فعلى العكس لأنه بها يتوجَّه إلى الخَلْق .

وقد أكرم الله عباده وشرَّفهم إذ أضافهم إليه سبحانه فقال : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان : ٦٣/٢٥] .

وأما « العبيد » فهي أعمُّ من « العباد » لذلك لم يضفها أولاً ، وبذلك عبَّر ثانياً عن عدله المُطلَق لمن آمن به ومن كفر فقال : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصِّلت : ٤٦/٤١] ، وإذا قلنا إن العبودية طاعةُ خوفٍ وإن العبادة طاعةُ محبةٍ فإنهما مجتمعتان في وصف المسلم الذي يعبد ربه رهباً ورغباً .

وقال الزجَّاجُ في قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦/٥١] أي إلا لأدعُوَهُم إلى عبادتي طالباً ذلك منهم ، ولو خلقهم ليجبرهم على عبادته لكانوا جميعاً مؤمنين ، ولكنه عزَّ وجلَّ علم من قبل أن يخلقَهم من يعبده ومن سيكفر به[1] .

---

(١) اللسان (عبد) .

والمتألِّه : العابد ، والفعل منه : تألَّه . وآلَه : عبد . يقال : أَلَه إلاهةً وألوهةً وأولوهيّةً أي عبد عبادةً . وقرأ ابنُ عباس : ﴿وَيَذَرَكَ وإِلٰهَتَكَ﴾[1] أي وعبادتك ؛ لأن فرعون كان يقول : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات : ٧٩/ ٢٤] ، و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص : ٢٨/ ٣٨] .

وكل معبود إلٰهٌ ، ولا تصح العبادة إلا لله الواحد الأحد لا شريك له سبحانه وتعالى . وجمع إله : آلِهة . وإلٰهٌ بمعنى مألوهٌ أي معبودٌ[2] . وأما لفظ الجلالة (الله) فهو اسم عَلَم عليه تبارك وتعالى لايشاركه فيه سَمِيٌّ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ١٩/ ٦٥] تفرَّد به ولا يطلق على سواه . و (الـ) في لفظه ليست للتعريف لأن العَلَمَ معرَّف بعلميَّته ، ولكنها زائدة وزيادتها لازمة ، فهي لا تنفَكُّ عن لفظه ، وقد تميَّز هذا اللفظ في العربية بجواز مباشرة (يا) في النداء له ، فهي أداة لا ينادى بها المعرف بـ (الـ) كالرجل والمرأة . وإذا أريد نداء ما فيه (الـ) بـ (يا) فُصِل بينها وبين المنادىٰ بـ (أيُّها) للمذكر و (أيتها) للمؤنث ، واستُثني من ذلك لفظ الجلالة فإنه ينادى بـ (يا) من غير وساطة أو فاصل فيقال : (ياالله) وتصبح همزة لفظ الجلالة في هذه الحال همزة قطع . كما تميَّز من بين سائر الأعلام في العربية أنه ينادىٰ بميم مشدَّدة في آخره فيقال (اللَّهُمَّ) وسبحان الله الواحد الأحد الفرد الصمد المتفرِّد في كل شيء .

* * *

---

(١) ﴿وقالَ المَلأُ مِنْ قَومِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ موسى وقومَهُ لِيُفْسِدُوا في الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وآلِهتَكَ﴾[الأعراف : ٧/ ١٢٧] ، ونسب القرطبي قراءة : ﴿وإِلٰهَتَكَ﴾ إلى عليِّ بن أبي طالب وابن عباس والضحّاك . تفسير القرطبي ٧/ ٢٦٢ .

(٢) كما في القاموس المحيط وغيره . وانظر كتاب اشتقاق أسماء الله تعالى للزجّاجي .

من آثار الدكتور مازن المبارك

- قواعد اللغة العربية (بالاشتراك) دمشق - وزارة المعارف ١٩٥٣م.
- الإيضاح في علل النحو للزجاجي (تحقيق) القاهرة ١٩٥٩ وبيروت ١٩٧٣.
- مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته. دمشق ١٩٧٠-١٩٨١.
- الزجَّاجي حياته وآثاره ومذهبه النحوي. دمشق ١٩٦٠-١٩٨٤.
- الرمَّاني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه. دمشق ١٩٦٣-١٩٩٥.
- مغني اللبيب لابن هشام (تحقيق بالاشتراك) دمشق ١٩٦٥ وبيروت ١٩٦٩-١٩٨٥.
- النحو العربي (بحث في نشأة النحو وتاريخ العلة النحوية) دمشق ١٩٦٥ وبيروت ١٩٨١.
- النصوص اللغوية. بيروت ١٩٦٧.
- الموجز في تاريخ البلاغة. بيروت ١٩٦٨ ودمشق ١٩٨١ و١٩٩٥.
- كتاب اللامات للزجَّاجي (تحقيق) دمشق ١٩٦٩ و١٩٨٥.
- نحو وعي لغوي. دمشق ١٩٧٠ وبيروت ١٩٨٥.
- اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي. بيروت ١٩٧٣-١٩٩٨.
- مختارات شعرية للمراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية (بالاشتراك) الدوحة ١٩٨٢.
- اللغة العربية لغير المختصِّين (بالاشتراك) اللاذقية ١٩٨٣.
- المباحث المرضيَّة المتعلِّقة بمَنْ الشرطية لابن هشام (تحقيق) دمشق ١٩٨٧.

- رسالتان لابن جني (تحقيق): الألفاظ المهموزة، وعقود الهمز. دمشق ١٩٨٨.
- المقتضب لابن جني (تحقيق) دمشق ١٩٨٨ .
- الحدود الأنيقة للشيخ زكريا الأنصاري (تحقيق) دمشق ١٩٩١ .
- أشهر الأمثال للشيخ طاهر الجزائري. دمشق ١٩٩٥ .
- نصوص من الأدب العربي المعاصر (بالاشتراك) دمشق ١٩٩٨ .
- مقالات في العربية. دمشق ١٩٩٩ .

* * *

جدد
٢٠١٤

المحتوى

دعاء ٥
مقدمة الأستاذ أسامة الرفاعي ٧
مناجاة ٩
المقالة الأولى : الدعوة التامة ١٥
تمهيد ١٧
«الله أكبر، الله أكبر» ٢٠
«أشهد أن لا إله إلا الله» ٢٣
«أشهد أن محمداً رسول الله» ٢٥
«حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح» ٢٧
المقالة الثانية : تدبُّر القرآن والعمل به ٣٢
المقالة الثالثة : طُرق الهدى وأبواب الخير ٣٦
المقالة الرابعة : ويمنعون الماعون ٣٩
المقالة الخامسة : عباد وعبيد ٤٢
من آثار المؤلف ٤٦
المحتوى ٤٨

* * *